"سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحقيقة الخلاف بينه وبين خصومه".

محاضرة علمية ألقاها فضيلة الشيخ / د عبدالله العنقري

بالرياض بتاريخ ١٨/ ٣/ ١٤٤٢هـ

اعتنى بنشرها

محمد السهيمي

الشيخ لم يراجع التفريغ

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم وبارك على عبده ورسوله نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. أما بعد: فعندنا اليوم هذه المحاضرة وعنوانها **"سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وحقيقة الخلاف بينه وبين خصومه"**.

أما الشق الأول فهو معلوم معروف عند الجميع، أما الشق الثاني فهو في الحقيقة من أهم ما ينبغي أن يوضح ويُجلى للناس؛ لورود كثير من الشبهات بسبب الجهل بحقيقة الخلاف الذي كان بين الشيخ وبين خصومه.

وسنقسم بإذن الله تعالى الكلام في هذه المحاضرة إلى أربع فقرات:

- **الأولى في سيرة الشيخ وأهم ينبغي التنويه إليه في هذه السيرة.**
- **الثانية في حقيقة الخلاف بين الشيخ وبين خصومه.**
- **الثالثة فيما ترتب على هذا الخلاف من التكفير والقتال.**
- **الرابعة في تراجع عدد كثير من خصوم الشيخ عن معاداته.**

نبدأ بتيسير الله تعالى في الفقرة الأولى فنقول:

هو الإمام المجدد الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن عِلِي التميمي، وُلد عام ألف ومائة وخمسة عشر في بلدة العيينة. وأخذ العلم عن والده الشيخ عبد الوهاب الذي كان قاضي العيينة، كما أخذ العلم عن عمه الشيخ إبراهيم وكان فقيهًا واسع الاطلاع.

قال الشيخ عبد الرحمن بن حسن: «فظهر بين أبيه وعمه فحفظ القرآن وهو صغير، وقرأ في فنون العلم وصار له فهم قوي وهمة عالية في طلب العلم، فصار يناظر أباه وعمه في بعض المسائل بالدليل. على بعض الروايات عن الإمام أحمد والوجوه عن الأصحاب. فتخرج عليهما في الفقه وناظرهما في مسائل قرأها في الشرح الكبير والمُغني والإنصاف؛ لما فيهما من مخالفة ما في متن المنتهى والإقناع. وكل هذه كتب حنبلية.

وعلت همته -رحمه الله- إلى طلب التفسير والحديث فسافر إلى البصرة غير مرة، كل مرة يقيم بين من كان من العلماء فيها انتهى كلام الشيخ -رحمه الله.

وقد رحل الشيخ إلى الأحساء وأخذ عن عدد من علمائها وحصل له في الأحساء مناقشة شهيرة مع قاضيها الشيخ عبد الله بن عبد اللطيف أقرّ فيها القاضي بقول أهل السنة في الإيمان وخالف جماعته الأشاعرة.

وقد تلقى الشيخ محمد العلم عن علماء مكة والمدينة ومن أشهرهم الشيخ ذائع الصيت المحدث محمد حياة السندي، والفقيه الشيخ عبد الله بن سيف وغيرهما من علماء الحرمين.

كما تلقى العلم عن علماء البصرة كالشيخ شهاب الدين الموصلي قاضي البصرة، وحسين الإسلام غولي، والشيخ محمد المجموعي. وارتحل أيضًا للزبير وأخذ عن علمائها.

ومن البلدان التي دخلها الشيخ وأخذ عن علمائها بغداد، كما ذكر ذلك الشيخ إبراهيم الحيدري الشافعي في كتابه "عنوان المجد في بيان أحوال بغداد والبصرة ونجد". فقد نقل عن والده أن الشيخ محمد أخذ في بغداد عن جده الشيخ صبغة الله الحيدري الشافعي، وقل من ذكر دخول الشيخ إلى بغداد وذكر أخذه عن علمائها، بل رأيت من أهل العلم الأفاضل من نفى دخول الشيخ إلى بغداد مع أن الشيخ الحيدري يثبت أنه دخل بغداد.

والذين تلقى الشيخ العلم عنهم الحقيقة كثيرون جدًّا وقد أجازه غير واحد من شيوخه بأن يروي كتب السنة الستة المعروفة والمسند والموطأ وغيرها من كتب العلم ككتب المذهب الحنبلي بأسانيدها.

ما الذي تميز به الشيخ محمد في تلقيه العلم عن بقية علماء نجد؟

مما يجدر التنبيه إليه أن الشيخ محمدًا تميز على معاصريه من علماء نجد بعنايته بعلوم من الشريعة لم تكن محل عناية علماء نجد في تلك الحقبة كالحديث والتفسير. فقد درَّسها سنين عددًا وصنف فيها -رحمه الله تعالى- أكثر من مصنَف إضافةً إلى عنايته بفقه الأحكام.

أما علماء نجد في تلك الفترة فكان جل اهتمامهم بالفقه فقط ولم تكن لهم همة عالية ببقية العلوم كما ذكر ذلك الشيخ القاضي عبد الله البسام -رحمه الله تعالى- في كتابه "علماء نجد"، بل ذكر أنهم كانوا يرون أن ماسوى الفقه مشغلة ومضيعة للوقت. فمن هنا تميز الشيخ -رحمه الله- بإلمامه بسائر علوم الدين حيث نفعه الله تعالى بتلك الرحلات التي تلقى فيها العلوم عن أهلها، فلذا لزم الشيخ محمد في تلك الحقبة منهج المحققين من العلماء بترك التعصب للمذهب الفقهي إذا تبين أن الدليل على خلافه. وكرّر الشيخ -رحمه الله تعالى- على معاصريه أن هذا هو ما أوصى به الأئمة

الأربعة -رحمهم الله جميعًا-، مما جعل المتعصبين للمذاهب الفقهية يشنون عليه حملة شعواء حاصلها أن ابن عبد الوهاب يدعي الاجتهاد المطلق .وقد رد هذا وبين أنه لم يدعي الاجتهاد المطلق بل عمل بما أوجبه نفس الأئمة الأربعة -رحمهم الله- الذين نهوا عن تقليدهم إذا تبين أن ثمة قولًا ذهب إليه أحدهم قام الدليل على خلافه، فكان الشيخ -رحمه الله- يأخذ بالدليل ويخرج عن المذهب إذا اتضح أن الصواب في قول أهل مذهب فقهي آخر.

وهذا لا شك هو مسلك المحققين من أهل العلم -رحمهم الله-، لا يترددون قطعًا في أن هذا هو المتعين عند اتضاح الدليل وعلى رأس هؤلاء الأئمة الأربعة -رحمة الله تعالى عليهم-.

و لا بد عند كلامنا على التعريف بالشيخ محمد أن نذكر هذين التنبيهين فإن أحدهما يبين ويوضح السبب في حملة ظالمة وقعت على الشيخ -رحمه الله تعالى- على يد مجموعة ممن لم يعرفوا الإنصاف؛

التنبيه الأول: أن الشيخ -رحمه الله تعالى- سلك في دعوته إلى الله مناقشة خصومه ومحاورتهم بالتي هي أحسن، وكان كثير التركيز على أمر المناقشة والحوار، وقد أبلغ بالصبر على تجاوزات شديدة من خصومه في حقه، وكاتب حتى من كانوا ينصرون

الشرك بأسلوب رفيق هادئ، إلى أن تمادى مَن تمادى منهم في العناد رغم كثرة ما نقل لهم الشيخ من تقريرات العلماء من المذاهب الأربعة على صحة ما يقرره، فعند ذلك لم يجد الشيخ بدًا من الرد على هؤلاء الذين خرجوا إلى العناد والمكابرة.

و من دلائل ذلك في كتاب الشيخ قوله عن ثلاثة من أشد خصومه الذين كفروه وسافروا إلى البلدان يحرضون عليه ويحثون على لزوم الشرك، قال عن هؤلاء الثلاثة: «كاتبناهم ونقلنا لهم العبارات وخاطبناهم بالتي هي أحسن وما زادهم ذلك إلا نفورًا» واعتمد الشيخ -رحمه الله- في مناقشة مخالفيه أسلوبًا يعد نادرًا جدًّا بين الخصوم؛ وذلك أنه كان يُمكِّن خصومه من الوصول إليه في بلده مع أنهم يكفرونه آمنين . ويناقشهم -رحمه الله تعالى- وجهًا لوجه ثم يقوم بتأمين رجوعهم إلى بلدانهم مكرمين.

وفي هذا يقول عن عدد من خصومه الذين ناقشهم بهذه الطريقة بأن العام والخاص يعني من أهل بلدة فرحوا بمجيء هؤلاء الثلاثة إليه، ثم قال بعد أن أتمّ مناقشته لهم: وراحوا موقرين محشومين. مع أن في خصومه هؤلاء مَن كان يُكفِّره ويحذر الناس من دعوته ولكن الشيخ مكَّنهم من الوصول إليه آمنين والعود إلى بلدانهم مكرمين.

ودعا الشيخ عددًا ممن كاتبهم في رسائله إلى مقابلته وجهًا لوجه كما طلب ذلك من القاضي ابن عباد قاضي بلدة ثرمداء، والقاضي عبد الله بن سحيم قاضي بلدة حرمة، كما عرض على القاضي عبد الله بن عيسى إرسال ابنه عبد الوهاب إليه، وقال: يخاطبني وأخاطبه من الرأس؛ يعني مباشرة، وإن كان كبر عليه الأمر فيوصي إليّ وأنا أعني له -أي أنا أتجشم على السفر إليه-.

التنبيه الثاني: أن الشيخ محمدًا كان ينكر المنكرات في ظل ولاية شرعية، فهدمه القبة المبنية على قبر - زعم الغلاة كذبًا أنه لزيد بن الخطاب -رضي الله عنه-، هذا الهدم كان في ولاية حاكم العيينة عثمان بن معمر، عندما كان الشيخ مقيمًا في بلده. وهدم القباب الذي جرى في الدرعية لاحقًا كان في ولاية حاكم الدرعية محمد بن سعود. فلم يكن الشيخ -رحمه الله- يتصدى لأمور كبيرة كهذه إلا في ولاية شرعية.

ونحن حينما نقول في ولاية شرعية فلأن وضع البلدان النجدية في تلك الفترة هو وجود عدد من الحكام المتمكنين في بلدان متفرقة، في كل بلد حاكم استقل بحكمه وأدار شأن بلده وضبط البلد مستقلًا عما سواه.

وقد أفتى أحد أكابر شيوخ نجد قبل الشيخ محمد وهو أحمد بن عطوة أن ولاية أولئك الحكام في نجد ولايات صحيحة، وأن حكوماتهم نافذة. قال ابن عطوة:

سألت شيخنا -ويعني الشيخ مرعيًا الكرمي الحنبلي الشهير-، سألته عن حكام بلدنا -يعني في نجد- بعد أن عرَّفته حالهم، فأجاب: حكمهم كغيرهم من السلاطين في سائر البلدان. وصرَّح الشيخ بأن من تغلب في ناحية فحكمه حكم الإمام. نقل ذلك كله عن ابن عطوة الشيخ أحمد المنقور الحنبلي في كتابه "الفواكه العديدة".

وهذا الوضع لبلدان نجد فيه أهم جواب على من زعم أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب خرج على الدولة العثمانية، فإن العثمانيين لم يكن لهم سلطان على البلدان التي بها الشيخ أصلًا حتى يُقال قد خرج عليهم، والعلماء كما ذكرنا يفتون بأن الوضع الذي تكون عليه البلدان النجدية في ذلك الوقت وما ماثلها من أن كل حاكم متمكن بولاية مستقلة فولايته صحيحة. وهذا ما كان يقرره أيضًا الشيخ محمد بن عبد الوهاب.

ومن عجيب الأمور أنهم يقولون إن الشيخ محمد بن عبد الوهاب خرج على الدولة العثمانية مع أن حاكم الأحساء ابن عريعر كان ذا أثرٍ كبير كما سنرى إن شاء الله تعالى على حاكم العيينة، وابن عريعر هو الذي طرد العثمانيين منذ عام ألف وثمانين من الأحساء ولم يعد لهم سلطان أبدًا على الأحساء، وكانت مثل العيينة

وكذلك بلدان أخرى في نجد تخضع لحاكم الأحساء الذي خرج على العثمانيين، فكيف يُقال إن محمد بن عبد الوهاب خرج أصلًا على العثمانيين وهم ليس لهم سُلطة أصلًا على البلدان النجدية؟

وبذلك يُعرف أحد الوجوه الكبيرة في الفرق بين منهج الشيخ محمد بن عبد الوهاب ومنهج الغلاة المعاصرين الذين زعموا أنهم امتداد لدعوة الشيخ.

فإن الشيخ كان يرى ثبوت ولاية أولئك الحكام في وقته.

أما هؤلاء الغلاة فيزعمون أن الولاية لهم هم وأن ولاية غيرهم ليست شرعية. وهذا فرق جوهري كبير بين الشيخ وبين هؤلاء الغلاة.

والفروق بين الشيخ محمد وبين منهجه ومنهج الغلاة كثيرة جدًّا يعيها من فهم منهج أهل السنة في باب الولاية والسياسة الشرعية وفهم أيضًا منهج الغلاة.

الفقرة الثانية في حقيقة الخلاف بين الشيخ محمد وخصومه..

سنذكر بإذن الله تعالى قبل تفصيل حقيقة هذا الخلاف أيضًا تنبيهين هما:

الأول: أن من أكثر الأخطاء الواقعة في تعامل من هاجموا دعوة الشيخ، من أكثر أخطائهم اقتطاع كلام الشيخ من السياق الذي ورد فيه والمناسبة الموضحة له، ثم

التشنيع على الشيخ -رحمه الله- بأنه قال كذا وكذا. وقد بتروا كلامه عن السياق الذي يوضحه والسبب الذي لأجله قال ما قال من الكلام الذي نقلوه مبتورًا.

وهذا الأسلوب مع أنه ظلم وتجني فإنه لو استعمل مع أي أحد لأمكن تشويه كلامه بسهولة، بل إن من يستعمل هذا الصنيع الجائر لو طُبق عليهم هم أسلوبهم فقُطع كلامهم عن سياقه ومناسبته لاشتكوا بأنهم لم ينصفوا ولم يُتقى الله فيهم، لكنهم إذا استعملوا هذا مع الشيخ ومع غيره من أهل العلم لم يبالوا بقلة تقواهم هم لله -عز وجل-.

وإنما نبهت لهذا الأمر لأن كلام الشيخ محمد في التكفير وموقفه من القتال مبني على أساس علمي قرره علماء أهل السنة قبله.

فإذا جُمع كلام الشيخ متكاملًا اتضح موقف الشيخ من جميع هذه المسائل لمن أراد الإنصاف، فإن موقف الشيخ من القتال والتكفير مبني على الأصل الأكبر لحقيقة التوحيد الذي بعث الله به رسله وهو الأصل الذي خالف خصوم الشيخ فيه منهج أهل السنة أشد المخالفة كما سيأتي إن شاء الله.

فالواجب ربط كلام الشيخ محمد في هذه المسائل ببعضها؛ ليتضح في سياق علمي وأن يُترك التشهي بعرض المسائل وفق الهوى.

التنبيه الثاني: أن خصوم الشيخ في الحقيقة كانوا فريقين؛ أولهما من وافقوه في بطلان الواقع الموجود في وقته مما يقع من الغلاة من دعاء غير الله والذبح له وغير ذلك مما يصنعه الغلاة عند القبور وغيرها.

كما وافق هؤلاء الخصوم الشيخ في بطلان ما كان يفعله عدد من الجفاة في وقتهم ممن كانوا يستعلنون ويجهرون بإنكار الجنة والنار والبعث، وكان هؤلاء الجفاة يسخرون من الشريعة وأحكامها علانية.

وهذه الأمور كان الجفاة يزاولونها مع علمهم بأن هذا كله مما بعث الله به نبيه -صلى الله عليه وسلم-. فلم يكن حالهم حال جاهل يُعلَّم، بل كان حالهم حال معاند مصرٍ على عناده.

الفريق الأول من خصوم الشيخ خطأ الغلاة وخطأ الجفاة لكنهم خالفوا الشيخ، فقرروا أن هؤلاء جميعًا من الغلاة ومن الجفاة لمّا كانوا يقولون لا إله إلا الله فهم مسلمون مطلقًا مهما وقع منهم من قول أو فعل أو اعتقاد باطل، وقرروا قاعدة: من قال "لا إله إلا الله" فهو مسلم بقطع النظر عما صدر منه من هذه العظائم بالغةً في الشناعة ما بلغت؛ لأن معنى كلمة التوحيد عندهم هو أن يقر أن الله تعالى هو ربه، فمن أقرّ بها فهو عند خصوم الشيخ مسلم مطلقًا، هذا هو السبب الأول في

عدم تكفيرهم من كان من الغلاة الذين يصرفون العبادة لغير الله ومن كان من الجُفاة الذين يجهرون بإنكار اليوم الآخر بما فيه من بعث وجنة ونار.

والسبب الثاني عجيب جدًّا وهو أن خصوم الشيخ كانوا يقولون إن من سكن في الجزيرة العربية فلا يمكن أن يقع منه شرك سواء أكان من الجفاة أو من الغلاة، فمن سكنها بزعمهم فلا يمكن أن يقع منه شرك مطلقًا.

وقد ناقش الشيخ هذا الفريق من خصومه بما أجمع عليه العلماء من أن من قال كلمة التوحيد وأتبعها بناقض ينقضها من قول أو فعل أو اعتقاد فإنها لا تنفعه.

فمن قال كلمة التوحيد ودعا غير الله أو قال كلمة التوحيد وكذَّب بالجنة والنار فقد نقض كلمة التوحيد بإجماع العلماء. ونقل الشيخ كلام الفقهاء من المذاهب الأربعة في هذا، ونبّه خصومه هؤلاء إلى أنهم خالفوا علماء الأمة بما قرروه من هذا المعنى الباطل لكلمة لا إله إلا الله.

فأما زعم خصوم الشيخ أن من سكن الجزيرة فلا يمكن أن يقع في كفر فساق الشيخ لإبطاله ما وقع من المرتدين الذين قاتلهم الصحابة -رضي الله عنهم- بعد موت النبي -صلى الله عليه وسلم-، وكانوا كلهم من أهل الجزيرة العربية. وسنورد إن شاء الله عز وجل كل ذلك قريبًا.

فهذا في بيان الفريق الأول من خصوم الشيخ وهم أسهل خصوم الشيخ.

أما الفريق الثاني فهم ثلة من الغلاة الذين كانوا يرون أن ما يقع عند القبور من دعاء أهلها والذبح لهم -يعبرون هكذا- هو الدين الصحيح، وكتب بذلك خصم شهير للشيخ هو محمد بن فيروز وأرسل كتابه هذا للشيخ محمد بن عبد الوهاب، واتجه عدد من خصوم الشيخ الغلاة هؤلاء إلى البلدان التي كان بها قبور يُغلى فيها، اتجهوا لتلك البلدان وحذروا أهلها من التراجع عما هم فيه من الشرك بعد دعوة الشيخ، وأفتوهم أن ابن عبد الوهاب قد كفر وحلّ دمه حين أنكر الضلالات الموجودة عند هذه القبور.

الفريقان اللذان ذكرنا من خصوم الشيخ وإن اختلفا في النظرة إلى الممارسات الشركية إلا أنهما اتفقا على أن معنى التوحيد هو الإقرار بالربوبية وخالفوا بذلك ما قرره علماء السلف وأئمة الإسلام في معناه كما سيأتي إن شاء الله.

بعد هذين التنبيهين نشرع بعون الله في بيان حقيقة الخلاف الذي وقع بين الشيخ وخصومه هؤلاء فنقول:

ينبغي أن يُعلم أن حقيقة خلاف الشيخ مع خصومه راجعة إلى الأصل العظيم الذي بعث الله به رسوله -صلى الله عليه وسلم- وهو معنى لا إله إلا الله.

فالشيخ محمد كان يقرر أن معنى هذه الكلمة هو لا معبود بحق إلا الله ويبني على ذلك أن جميع العبادات يجب أن تصرف لله تعالى وحده من ذبح أو دعاء أو غيره. فمن صرف من العبادات شيئًا لغير الله فقد أشرك؛ لأنه إذا قال كلمة التوحيد بلسانه ثم صرف العبادة لغير الله فقد نقض هذه الكلمة بصرفه العبادة لغير الله.

أما خصوم الشيخ فإنهم زعموا أن معنى كلمة التوحيد الإقرار بأن الله هو الرب الخالق المدبر، قالوا: من أقر بذلك فقد أقام التوحيد ولو وقع في صرف عبادة لغير الله، فلا يُحكم بأنه نقض كلمة التوحيد.

وهكذا قالوا فيمن جحدوا الجنة والنار، قالوا: لا يُحكم بأنهم نقضوا كلمة التوحيد لأن كلمة التوحيد عند خصوم الشيخ تعني أن يقر العبد أن الله هو الرب المدبر، فإذا أقر أن الله هو الرب المدبر وأنكر الجنة والنار، قالوا: فهو ما أنكر أن الله هو الرب المدبر.

وزعم خصوم الشيخ أن كفار قريش ما كانوا يقرون أن الله هو الرب الخالق المدبر؛ لأنهم لو أقروا بذلك لقالوا كلمة التوحيد الذي هذا معناها بزعم خصوم الشيخ. وقد رد الشيخ -رحمه الله تعالى- على خصومه كلامهم هذا مستدلًا بصريح الآيات القرآنية التي يحفظها حتى الصبيان الدالة على أن الكفار الذين قاتلهم النبي -صلى

الله عليه وسلم- كانوا يقرون بأن الله هو الخالق المدبر، فلو كان معنى لا إله إلا الله الإقرار بأن الله هو الخالق لما ردها كفار قريش؛ لأنهم يقرون بهذا المعنى وأورد الشيخ الآيات القرآنية الكثيرة الدالة على أن كفار قريش يقرون أن الله هو خالقهم ومدبرهم، كقول الله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَهُمْ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[الزخرف:٨٧]، وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾[الزمر:٣٨]، وقول الله - عز وجل- في سورة المؤمنين في الآيات الست: ﴿قُلْ لِمَنِ الْأَرْضُ وَمَنْ فِيهَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ * سَيَقُولُونَ لِلَّهِ﴾[المؤمنون: ٨٤، ٨٥]، والآيات في هذا كثيرة، ومنها الآية العظيمة الجامعة في صورة يونس: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ ۚ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ﴾[يونس:٣١]، فالمشركون بنص القرآن كانوا يقرون أن الله هو ربهم وخالقهم ومدبر أمرهم.

وهذا هو معنى الإيمان الذي نسبه الله تعالى لهم في سورة يوسف. فقال عز وجل: ﴿وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ﴾[يوسف:١٠٦]، وقد أوضح علماء الأمة هذا عند تفسيرهم الآيات. فقال ابن عباسٍ -رضي الله عنهما- فيما رواه الطبري عند قول الله: وَمَا يُؤْمِنُ أَكْثَرُهُم بِاللَّهِ إِلَّا وَهُم مُّشْرِكُونَ، من إيمانهم إذا قيل

من خلق السماء؟ قالوا: الله، من خلق الأرض؟ قالوا: الله، من خلق الجبال؟ قالوا: الله وهم مشركون.

وقال عكرمة: تسألهم من خلقهم وخلق السماوات والأرض؟ فيقولون: الله، فذلك إيمانهم بالله وهم يعبدون غيره.

وقال قتادة: لست تلقى أحدًا منهم إلا أنبأك أن الله ربه وهو الذي خلقه ورزقه وهو مشركٌ في عبادته.

وآثار السلف في الحقيقة كثيرة جدًّا في هذا، وقد نصّ على هذا المعنى مَن صنفوا في التفسير كابن جريرٍ وابن كثيرٍ والبغوي وغيرهم من المفسرين الذين قرروا أن المشركين كانوا يقرون أن الله هو ربهم ومدبرهم.

فلو كان معنى لا إله إلا الله الإقرار بأن الله هو الخالق المدبر لما ردها المشركون، وإنما رد المشركون هذه الكلمة لأن معناها إفراد الله وحده بالعبادة وعدم صرف شيءٍ من العبادات لغيره تعالى، والدليل على معناها واضحٌ في القرآن كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ * وَيَقُولُونَ أَئِنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا﴾[الصافات: ٣٥،٣٦]، ففهموا أن معنى كلمة التوحيد أن تترك عبادة كل ما سوى الله.

وهذا الحال هو حال جميع المشركين الذين بعث لهم الأنبياء؛ فقوم هودٍ على سبيل المثال لما دعاهم هود -عليه الصلاة والسلام- لكلمة التوحيد قائلًا ما لكم من إلهٍ غيره! ردوا عليه بقوله، ردوا عليه بقولهم: ﴿أَجِئْتَنَا لِنَعْبُدَ اللَّهَ وَحْدَهُ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعْبُدُ آبَاؤُنَا﴾[الأعراف:٧٠]، ففهموا أن كلمة التوحيد تعني إفراد الله بالعبادة وترك عبادة ما سواه. هذا المعنى هو المقرر لكلمة التوحيد في مواضع من كتاب الله، كقول الله: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ﴾[البقرة:٢٥٦]، والمراد بالعروة الوثقى لا إله إلا الله. وهكذا قول الله عن إبراهيم: وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ إِنَّنِي بَرَاءٌ مِّمَّا تَعْبُدُونَ * إِلَّا الَّذِي فَطَرَنِي﴾[الزخرف:٢٦،٢٧]، إلى قوله: ﴿وَجَعَلَهَا كَلِمَةً بَاقِيَةً فِي عَقِبِهِ﴾[الزخرف: ٢٨]. فهذا معنى كلمة التوحيد الذي لا يتردد علماء الأمة فيه وهو الذي قرره ابن عبد الوهاب وردد -رحمه الله تعالى- في كتبه أن معنى كلمة التوحيد مرتبطٌ بإفراد الله بالعبادة. فقال: إن معناها لا معبود بحقٍ إلا الله.

وهذه العبارة لا معبود بحقٍ إلا الله التي ذكرها الشيخ هي عبارة أهل العلم قبله، فتجدها في كلامهم وأكتفي بنقلٍ واحدٍ لهذا المعنى عن شيخ المفسرين ابن جريرٍ الطبري، فإنه عند آية سورة غافر: ﴿هُوَ الْحَيُّ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ قال مفسرًا الكلمة:

"لا إله إلا هو" لا معبود بحقٍ تجوز عبادته وتصلح الألوهة له إلا الله. انتهى كلام الطبري.

وهذه الكلمة كما ترى هي عبارة ابن عبد الوهاب التي كررها في كتبه لمعنى كلمة التوحيد.

فمن هنا قلنا إن أصل خلاف ابن عبد الوهاب مع خصومه هو في معنى كلمة التوحيد، ولذا انعكس هذا الخلاف على بقية مسائل الخلاف بينهم.

فلما كان خصومهم يفسرون كلمة التوحيد بأنها تعني الإقرار بأن الله هو الرب الخالق أنكروا أن يكون من يصرف العبادة لغير الله مشركًا، وأنكروا لشدة ما جهلوا من كلام العلماء تكفير من ينكر البعث والجنة نار، وبرروا ذلك بأن منكر البعث والجنة والنار وإن أنكرها فهو يقر أن الله ربه الذي هو معنى لا إله إلا الله بزعمهم.

وبذلك نعلم أيها الإخوة مسألةً مهمة: أن من جهل أصل خلاف الشيخ محمد مع خصومه الذي وضحناه هنا ثم خاض في موضوع التكفير والقتال الذي وقع بين الشيخ وبين خصومه فلم يفهم حقيقة الخُصمة التي جرت والمسائل التي ترتبت عليها، لماذا؟

لأن حقيقة الخُصمة كانت بين عالمٍ سُني استمسك بما قرره علماء أهل السنة لمعنى التوحيد، قابله خصومهم قرروا في معنى التوحيد معنىً باطلًا، وفرّعوا على ذلك ما قرره، ما قرروه في حقيقة الشرك والكفر؛ إذ قرروها على ما يعد عند أهل العلم في أشد أنواع غلو المرجئة.

فكان خصوم الشيخ غايةً في الإرجاء .

حتى إن بعض طوائف المرجئة تعارض هذا التقرير الذي قرروه ولو على الأقل في أن مَن جحد اليوم الآخر لا يمكن أن يكون عند المرجئة مسلمًا، وعند هؤلاء أن يقولون وإن جحد اليوم الآخر فإنه يكون مسلمًا.

وهكذا من صرف العبادة لغير الله -عز وجل- فإن طوائف من المرجئة تقول: إذا عبد غير الله لا يكون مسلمًا، وهؤلاء أن يقولون: وإن عبد غير الله بالدعاء والذبح وقال لا إله إلا الله فإنه يكون مسلمًا.

وهذا يدل على ما ذكرنا من كون هؤلاء قد خالفوا المنصوص المعلوم عند علماء الأمة.

وحيث فرغنا من توضيح أصل الخلاف بين الشيخ وبين خصومه فإن من الإنصاف أن ننقل دلائل كلام ذلك في كلام الشيخ وكلام خصومه بيانًا للحقيقة من كلام الطرفين.

ومن أراد الوقوف على ما سأنقله إن شاء الله فليراجع مناقشة الشيخ لخصومه في جزءٍ جُمع باسم "الرسائل الشخصية"، فإنه يوضح حقيقة الخلاف بين الشيخ وبين أولئك الخصوم.

من هذه الرسائل رسالة الشيخ لخصمه محمد بن عيد، فإن الشيخ خاطبه في شأن الأجلاف المنكرين للبعث المستهزئين بالشريعة، قائلًا:

لما بينتُ ما جاءت به النصوص وأجمع عليه العلماء من أن من أنكر البعث أو شك فيه أو سب الشرع أو سب الآذان إذا سمعه أو فضّل حكم الطاغوت على حكم الله فهو كافرٌ مرتد، قال علماؤكم: معلومٌ أن هذا حالهم لا ننكره، ولكن يقولون لا إله إلا الله وهي تحميهم من الكفر، ولو فعلوا كل ذلك. فلما أظهرتُ تصديق الرسول -صلى الله عليه وسلم- فيما جاءوا به، فيما جاء به سبوني غاية المسبة، وزعموا أني أكفر أهل الإسلام وأستحل أموالهم. وصرحوا -وانتبه لهذه الكلمة- صرحوا انه

لا يوجد في جزيرتنا رجلٌ واحدٌ كافر. - يعتقدون أن الجزيرة العربية مستحيل أن يوجد فيها أحدٌ يكفر-.

وفي مكاتبة أخرى جرت بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب وخصمه أحمد بن إبراهيم. أورد ابن عبد الوهاب على ابن إبراهيم أن من ينكرون البعث في زمنهما لم يكتفوا بإنكار البعث، بل كانوا يستهزئون بمن يُصدق بالبعث ويفضلون حكم الطاغوت على شريعة الله ويستهزئون بالشريعة ثم يقول الشيخ: مع إقرارهم بأن محمدًا رسول الله لكن كذبوا واستهزأوا عنادًا.

ثم عاتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب، عاتب خصمه هذا وبقية خصومه قائلًا: ومع ذلك تنكرون علينا كفرهم وتصرحون بأن من قال لا إله إلا الله لا يكفر، - يعني لا يكفر مطلقًا.-

وفي مكاتبةٍ ثالثة وجه الشيخ محمد بن عبد الوهاب لخصمه أحمد بن عبد الكريم هذا العتب الدال على ما ذكرنا من بناء الفريقين أمر التكفير على الأصل الذي نحن بصدد الحديث عنه، حيث قال ابن عبد الوهاب لخصمه هذا: إذا كنت تزعم أن الإنسان إذا أظهر الإسلام لا يكفر إذا أظهر عبادة الأوثان وزعم أنها الدين وأظهر سب دين الأنبياء وأفتى بقتل من أخلص الدين وإحراقه وحِل دمه، فهذه مسألتك

وقد قررتها وذكرت أن مِن زمن النبي -صلى الله عليه وسلم- إلى يومنا هذا لم يقتلوا أحدًا ولم يكفروه من أهل هذه الملة.

وفي رسالةٍ وجهها الشيخ محمد لعلماء أهل مكة، لخّص -رحمه الله تعالى- موقفه وموقف خصومه حين أفتى بكفر المعاندين ممن أنكروا البعث والجنة والنار وأنكروا توريث النساء، مع علمهم أن النبي -صلى الله عليه وسلم- بُعث بهذا الذي أنكروه. فلما أفتى الشيخ بذلك رد عليه خصومه بقولهم -واسمع رد خصومه-: من قال لا إله إلا الله لا يكفر ولو أنكروا البعث وأنكروا الشرائع كلها. لما كان خصوم الشيخ ينسبون للشرع ما قرروه من الحكم بإسلام المعاندين المذكورين توسع الشيخ -رحمه الله- في الاستدلال بنقولٍ عن السلف ومن بعدهم من علماء الأمة بالحكم على من نقض كلمة التوحيد بناقضٍ قوليٍ أو فعليٍ أو اعتقادي. فإن هذه الكلمة لا تنفعه.

وأورد -رحمه الله تعالى- سبع وقائع أولها قتال الصحابة -رضي الله عنهم- لمانعي الزكاة من المرتدين مع أنهم يقولون كلمة التوحيد.

وساق الشيخ ست وقائع أخرى حَكَم السلف والعلماء فيها بكفر من نقضوا كلمة التوحيد بناقضٍ قوليٍ أو فعليٍ أو اعتقادي.

ثم قال الشيخ عن هذا التقرير الذي نقله عن علماء الأمة: -يُعرفك هذا معرفة ضده- وهو أن علماء زماننا -يعني من خصومه- يقولون: من قال لا إله إلا الله فهو مسلمٌ لا يكفر حتى إنهم يصرحون بهذا في شأن من يكذبون بالبعث وينكرون الشرائع ويزعمون أن شرعهم الباطل هو الحق مع إقرارهم أن شرعهم هذا قد أحدثه لهم آباءُهم كفرًا بشرع الله.

ثم قال الشيخ وهو الشاهد لما قلنا: وعلماء الوقت يعترفون بهذا كله ويقولون عن هؤلاء ما فيهم من الإسلام شعرة، ثم المسلم عندهم -يعني عند خصومه- هو الذي ليس معه من الإسلام إلا شعرة، إلا أنه يقول بلسانه لا إله إلا الله.

ثم تعجب الشيخ من طريقة هؤلاء في التقرير فقال:

والعجب أن الكتب -يعني كتب الفقه- التي بأيديهم فيها مسائل الردة. يعني وفيها التصريح كما في الإقناع وغيره أن من أنكر البعث فإنه يكفر، أن من صرف العبادة لغير الله فإنه يكفر، ومع هذا فإنهم مصرون على عدم كفر هؤلاء.

فتجلى بما نقلناه أهمية تحرير أصل الخلاف بين الشيخ محمد وبين خصومه هؤلاء، فإن خلافهم ليس مرتبطًا بضوابط التكفير حتى نطيل الكلام فيها، بل خلاف الشيخ معهم مرتبطٌ في المقام الأول بأصلٍ كبير هو معنى لا إله إلا الله.

وهل يعصم دم من قالها مطلقًا وإن أتى بناقضٍ لها كصرف العبادة لغير الله أو جحد اليوم الآخر أو السخرية بما علم وجزم أنه من الشرع كما يقرر خصومه؟ أم أن هذه الكلمة العظيمة يترتب عليها أمور من لم يقم بها لم تنفعه هذه الكلمة إذا قالها بلسانه ثم نقضها بقوله أو فعله أو اعتقاده؟ فإن من أشرك وقالها وجحد اليوم الآخر، وقالها فإنها لا تنفعه بإجماع علماء الإسلام.

وحيث تبين أيها الإخوة أن أصل خلاف الشيخ وخصومه راجعٌ إلى خلافهم في معنى التوحيد الذي بعث الله به رسله -صلى الله عليهم وسلم-. فلا بد بحول الله تعالى من الكلام على ما تفرع على هذا الخلاف من التكفير والقتال.

فالكلام على التكفير والقتال متفرع عن الكلام في أصل الخلاف وهو معنى التوحيد. فيأتي من يهجم هجومًا ويقول إن الشيخ يقول كذا في التكفير. لكن الشيخ يقول هذا في التكفير في مَن؟ يقوله فيمن يزاولون هذه الشركيات علنًا وأبدى لهم أن هذا من مخالفة الشرع ووضح لهم الأدلة وأبوا. وقال هؤلاء الأجلاف: إن من يقول لا إله إلا الله لا يكفر حتى وإن سب الشرع، حتى وإن سخر بالآذان وكانوا يسمعون الآذان فيسخرون به، مع أن السخرية بالآذان ذكرها الله تعالى عن أهل الكفر ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا﴾[المائدة:٥٨]،

فهذا الصنيع لا يكون عادةً من مسلم، ولو أن مسلمًا جهل وعُلِّم وقيل إن هذا من دين الله لتوقف، لكنهم أصروا عليه فقال خصوم الشيخ: لا يمكن أن يكفروا ما داموا يقولون لا إله إلا الله، ولا يمكن أن يكفروا وهم في الجزيرة العربية.

وكأن هناك فرقًا بين من يجحد اليوم الآخر في الجزيرة ومن يجحده في مصر أو يجحده في الجزيرة ومن يجحده في الشام. والحكم واحد. قالوا: وأهل الجزيرة العربية لا يمكن أن يقع منهم كفر.

الفقرة الثالثة موضوع التكفير.

سألخص إن شاء الله تعالى ما قرره الشيخ في موضوع التكفير في الآتي؛

أولًا: أوجب الشيخ أن يُبنى الكلام في التكفير على ما قرره العلماء فيه، وأبطل كل تقريرٍ لمسائل التكفير على خلاف ما قرره العلماء، وكتب بذلك لخصومه مبينًا أنه لم يقرر إلا ما قرره العلماء في التكفير.

ثانيًا: التزم الشيخ ألا يُكفِّر إلا بأمرٍ أجمع العلماء على التكفير به، أما المسائل التي اختلف العلماء في التكفير بها -ومنها ترك الصلاة- فقد ترك الشيخ التكفير بها

احتياطًا لأمر التكفير حتى لا يُكفِّر إلا بالأمور التي اجتمع العلماء عليها كلهم. وهذا كما ترى من أعظم ما يكون في الاحتياط في التكفير.

ثالثًا: أنكر الشيخ التكفير بالعموم، وعَدَّ من وقع فيه ملحقًا بالمجانين، ونفى عن نفسه ما أشاعه عنه خصومه ظلمًا وعدوانًا من أنه يُكفِّر بالعموم، وأنه يقول بكفر الناس منذ ستمائة سنة وغير ذلك من الأكاذيب الكثيرة التي قال عنها إنهم إنما نشروها ليصدوا الناس عما يدعوهم إليه من التوحيد ونبذ الشرك.

رابعًا: الضوابط المعتبرة للتكفير عند العلماء قررها الشيخ كما قررها العلماء تمامًا وقد جمعتُ منها شيئًا كثيرًا يطول بنا المقام لو استعرضناه.

ولأجل ذلك ولطول كلام الشيخ في التكفير قال حفيده، في ضوابط التكفير قال حفيده الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن: هذا صريح في كلامه في غير موضعٍ ورسائله في ذلك معروفة.

خامسًا: حرص الشيخ كثيرًا على التفريق بين ما يحكم بأنه كفر أكبر وبين غيره من الأمور التي ينهى الناس عنها لأنها بدع لا يحكم بكفر الواقع فيها.

ومن أشهر ما ركّز الشيخ على التفريق فيه المسائل الآتية؛

المسألة الأولى: التفريق بين دعاء الصالحين أنفسهم وبين أن يتوسل إلى الله بالصالحين قائلًا اللهم إني أسألك بفلان. فالشيخ يكفر من دعا الصالحين وقال: يا عبد القادر أغثني، يقول: هذا كفر وهو فعل أهل الجاهلين.

أما من قال: اللهم إني أسألك بالشيخ عبد القادر، اللهم إني أسألك برسول الله، فالشيخ -رحمه الله تعالى- قال فيه ما يأتي -واسمع ما قال في التفريق بين هذا وهذا-، قال رحمه الله في الفرق بين الأمرين -بين دعاء الصالحين أنفسهم وبين سؤال الله بهم-، قال رحمه الله:

كون بعض -يعني من أهل العلم- يُرخص بالتوسل بالصالحين وبعضهم يخصه بالنبي -صلى الله عليه وسلم- وأكثر العلماء ينهى عن ذلك ويكرهه، فهذه المسألة من مسائل الفقه، يعني ليست عقدية، ولو كان الصواب عندنا قول الجمهور فلا ننكر على من فعلها ولا إنكار في مسائل الاجتهاد، لكن إنكارنا على من دعا المخلوق أعظم مما يدعو الله، ويقصد القبر يتضرع عند ضريح الشيخ عبد القادر أو غيره يطلب منه تفريج الكربات، فأين هذا ممن يدعو الله مخلصًا له الدين لا يدعو مع الله أحدًا لكن يقول في دعائه: أسألك بنبيك أو بالمرسلين أو بالصالحين، أو يقصد قبرًا يدعو عنده لكن لا يدعو إلا الله مخلصًا له الدين، فأين هذا مما نحن فيه؟

يقول: أين هذا -الفعل هذا- ممن يدعو الصالحين أنفسهم؟ يقول: هذا الذي يدعو الصالحين أنفسهم مشرك، لكن من يذهب عند قبرهم ويدعو الله، أو من يقول: يا ربي أسألك بنبيك، يقول: يختلف؛ لأن من يقول أسالك بنبيك مُوحد دعا الله، لكن استعمل في دعائه التوسم بالصالحين.

وهذا الذي كما سيأتي إن شاء الله تعالى أن الشيخ يقرر ما قرره فيه أبو حنيفة وأبو يوسف -رحمه الله- من منعه.

وقال الشيخ -رحمه الله- عن هذا التوسل بهذه الصيغة: أسألك بنبيك، يقول: هذا ليس شركًا ولا نهينا الناس عنه، ولكن المذكور عن أبي حنيفة وأبي يوسف -رحمهما الله- وغيرهم أنهم كرهوه، لكن ليس مما نختلف نحن وغيرنا فيه.

ففرق كما ترى بين أمرين؛

الأول: دعاء غير الله، فقد حكم بأن هذا شرك أهل الجاهلية الأولى الذي قاتلهم عليه النبي -صلى الله عليه وسلم-.

الثاني: دعاء مسلم ربه مخلصًا له الدعاء، لكنه توسل إلى الله بنبي، بنبي أو صالح قال: يا ربي أسألك بنبيك، أو يا ربي أسألك بالصالحين. هذا جزم ابن عبد الوهاب

بأنه يختلف عن الذي قبله؛ لأن هذا دعاء رجل موحد سأل الله ولم يسأل غيره، فهو مخلص في دعائه، فأما صيغة الدعاء التي دعا بها فابن عبد الوهاب يختار المنع منها، كما منع منها غيره من أهل العلم كأبي حنيفة وأبي يوسف -رحمهما الله-.

لكن ابن عبد الوهاب قطع بأن هذه الصيغة "أسألك بنبيك" ليست من الشرك في شيء، بل إنه عدّها -رحمه الله تعالى- من مسائل الاجتهاد التي لا ينكرها على من خالفها.

و لذا تجد أن ابن عبد الوهاب أدخلها في مسائل الفقه، وقد أطلق خصوم الشيخ ظلمًا وعدوانًا وكذبًا وزورًا أن الشيخ يقول: من قال أسألك بجاه النبي أو أسألك بالشيخ عبد القادر أن ابن عبد الوهاب يكفره. وهذا بهتان تولى كِبره خصوم للشيخ عُرفوا بالكذب مثل علوي الحداد وأحمد بن زيني دحلان وغيرهما كثير مما جعل كثيرًا من عامة المسلمين اللذين يستعملون هذا الدعاء يظنون أن ابن عبد الوهاب يُكفِّرهم إذا قالوا اللهم إني أسألك بنبيك، فانتشر في عامة المسلمين أن ابن عبد الوهاب يُكفِّر من قال أسألك بالصالحين، مع أنه يقول هذا أصلًا مما لم ننصب الخلاف فيه، لكن نقول: لا يدعو أحد إلا الله -عز وجل-، لا يقول: اللهم، لا

يقول: اغفر لي، لا يقول: وفقني، لا يقول: فُك أسري إلا لربه، لا يقول هذا لنبي ولا غيره.

وهذه حقيقة دعوة المرسلين كما لا يخفى.

المسألة الثانية التي حرص الشيخ على التفريق فيها: التفريق بين دعاء الله عند قبر أحد الصالحين. رجل يدعو الله عند قبر أحد الصالحين وبين آخر أتى إلى صاحب القبر يدعوه.

هذا التفريق ورد في كلامه السالف، حيث قطع بأن من دعا ربه عند القبر فإنه مسلم مخلص لله في دعائه وإن كان قد ابتدع بتخصيصه البقعة التي لم يخصها الشرع بالدعاء، لكنه موحد. وإنما يُحكم بالشرك على من يدعو غير الله ويسأله ما لا يجوز أن يطلبه العبد إلا من الله.

المسألة الثالثة التي حرص الشيخ على التفريق فيها: التفريق بين الشرك الصريح وبين الأسباب التي قد توصل إلى الشرك.

ومن أشهر ما يُمثَل به على هذا التفريق مسألة بناء القباب على القبور، ما حكمها عند الشيخ؟

الشيخ -رحمه الله تعالى- مع إنكاره بناء القباب على القبور ونقله الإجماع على المنع منها إلا أنه فرّق بين مجرد البناء على القبر وبين الشرك بصاحب القبر، فقال عن القبة المبنية على القبر: يجب هدمها، ثم قال: ولا علمتُ أنه يصل إلى الشرك الأكبر، وكذلك الصلاة عنده -يعني عند القبر- وقصده لأجل الدعاء فكذلك. يعني حكمها واحد لا يصل إلى الشرك ولا أعلمه يصل إلى ذلك،

ولكن هذه الأمور لأحد العبارة من أسباب حدوث الشرك، فيشتد نكير العلماء لأجل ذلك.

ففرق الشيخ كما ترى بين الشرك الصريح وبين الأمر المبتدأ.

فخلط الكاذبون أن الشيخ يكفر من فعل كل هذه الأمور، فمن أتى عند القبر ودعا الله قالوا يُكفِّر، من قال أسألك بنبيك قالوا يُكفِّر؛ مما أشاع في الناس أن ابن عبد الوهاب يكفِّر الأمة بعمومها؛ لأن هذا منتشر في كثير من الجُهال.

فاتضح بما نقلنا من وجهة الشيخ حقيقة موقفه من التكفير، وأنه بناه على ما بناه العلماء من أهل السنة، فخالفه في ذلك خصوم من المرجئة الذين افترى عليه بعضهم ما لم يقله وأشاعوه في الناس.

الفقرة الرابعة في موضوع القتال.

سنعرض إن شاء الله هذه الفقرة من جهتين؛

الأولى: في تحديد من بدأ القتال، هل هو الشيخ محمد وأصحابه أم خصومهم هم الذين بدأوهم بالقتال؟

الجهة الثانية: في السبب الذي هيّج القتال، ما هو؟

فعن الجهة الأولى نقول: تقدّم أن الشيخ التزم في دعوته المناقشة العلمية حتى مع ألد خصومه وراسلهم واستمر يسلك في دعوته مسلك الحكمة والموعظة الحسنة، وقد وفد عليه طلاب علم كثيرون من أنحاء الجزيرة العربية كلها، قرأوا عليه في التفسير والحديث والسيرة والفقه والعقيدة، وكثر طلابه جدًّا، وكان ذلك في بلدة حُريملاء، ثم حصل له مضايقة في هذه البلدة فغادرها إلى العيينة، فاستقبله أميرها عثمان بن معمر بالحفاوة، فامتد أثر دعوته.

وعندها أكثر خصوم الشيخ من الوشاية به وتشويه دعوته عند الحُكّام وراسلوا عددًا من الحكام يهيجونهم ويحذرونهم من الشيخ.

كل هذا لم يقع فيه قتال بعد. ترتب على ذلك أن تدخل حاكم الأحساء وكان من أفسد الحكام في ذلك الوقت وهو سليمان بن عريعر، فتهدد ابن معمر حاكم العيينة لإني كما قلت لكم من أن حاكم العيينة يتأثر جدًّا بحاكم الأحساء، وقلت لكم إن حاكم الأحساء هذا هو الذي أخرج أجداده عام ألفٍ وثمانين، أخرجوا العثمانيين من الأحساء وقتلوا جنودهم، ولم يعد للعثمانيين أي سلطة على الأحساء، فصارت بعض البلدان النجدية تتبع الأحساء، فكيف يقال إن محمد بن عبد الوهاب خرج على العثمانيين وأنت ترى السلطة الحقيقية لمثل ابن عريعر حاكم الأحساء داخل نجد وليست للعثمانيين؟.

هدّد ابن عريعر حاكم العيينة إن لم يُخرج الشيخ محمد من عنده أن يغزوه في بلده ويقطع عنه ما يجريه عليه من المال؛ لأن ابن عريعر كان يرسل لابن معمر ولبعض البلدان، ولبعض أمراء البلدان النجدية يرسل لهم خرجًا سنويًّا، فقال: سأقطع عنك ما أرسله وسأغزوك في بلدك.

فطلب الشيخ، طلب ابن معمر من الشيخ محمد أن يرتحل، فارتحل -رحمه الله تعالى- إلى الدرعية عام ألفٍ ومائةٍ وثمانيةٍ وخمسين، فأتاه أميرها محمد بن سعود -رحمه الله- بنفسه ووعده أن ينصره وينشر دعوته.

وفي هذه الفترة لم يكن بين الشيخ محمد بن عبد الوهاب وبين خصومه أي قتال. فقد قبل دعوته عددٌ ليس بالقليل من الناس كما عاداها آخرون غير قليلين أيضًا. ولم يكن الوضع في نجد في تلك الفترة إلا وضع مناقشات وردود بين فريقين تخاصما في مسائل نقلناها فيما تقدم.

فمن هنا كان من المهم بيان الطرف الذي أوقد الحرب وبدأ بها، هل هو الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأصحابه الذين رفضوا الأوضاع القائمة أم أن الذي بدأ القتال خصومه الذين أنكروا عليه دعوته؟

لإيضاح ذلك نرجع لهذه الواقعة تاريخيًّا.

فيتضح الجواب من كلام الشيخ وكلام خصومه على حد سواء. ونبدأ بنقل كلام الشيخ محمد في المسألة، فإنه بعد أن أوضح اعتقاده الذي دعا إليه الناس من وجوب إفراد الله تعالى بالعبادة وعدم صرف شيءٍ من العبادة لأصحاب القبور أوضح ما الذي واجهه به خصومه بعد هذه الدعوة، فقال:

«فهذا الذي أوجب الاختلاف بيننا وبين الناس حتى آل بهم الأمر إلى أن كفرونا وقاتلونا واستحلوا دماءنا وأموالنا.» يعني ابتداءً منهم.

ولما سأل علامة العراق الشيخ السويدي -رحمه الله تعالى- وكان ممن نصر دعوة الشيخ، سأل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، عما بلغه في العراق مما يشيعه خصوم ابن عبد الوهاب عنه ومنه القتال. أجابه الشيخ محمد: بأن خصومه هم الذين بدأوه بالقتال. فقال:

«وأما القتال فلم نقاتل أحدًا إلى اليوم إلا دون النفس والحرمة، وهم الذين أتونا في ديارنا ولا أبقوا ممكنًا». يعني هم الذين بادرونا بالقتال. «ولكن قد نقاتل بعضهم على سبيل المقابلة وجزاء سيئةٍ سيئةٌ مثلها».

وكذلك من جهر بسب دين الرسول -صلى الله عليه وسلم- بعدما عرفه.

وعند شرح الشيخ لقول الله تعالى: ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾[الفاتحة:٤]، تكلم عما صنعه خصومه من بدئه بالقتال فقال: «العداوة واستحلال دمائنا وأموالنا ونسائنا ليس عند التكفير والقتال، بل هم الذين بدأونا بالتكفير والقتال.»

ثم ذكر أن خصومه الذين يأبون تكفير من يجحد بالبعث يكفرونه هو، ويقول: لماذا لا تكفرون من يجحد البعث؟ قالوا: لأنه يقول لا إله إلا الله. فقال الشيخ -رحمه الله-: «وأنا أقول لا إله إلا الله وأنا من أهل الجزيرة العربية، فلماذا تكفرونني وأنا أقول لا إله إلا الله ولا تكفرون هؤلاء الأجلاف وهم ينكرون اليوم الآخر؟».

ثم قال -رحمه الله-: «ثم يكفرونا ويستحلون دماءنا وأموالنا مع أنّا نقول لا إله إلا الله». وذكر أنهم لم يكفهم ذلك حتى أفتوا لمن عاهدنا بعهد الله ورسوله أن ينقض العهد وله في ذلك ثوابٌ عظيم، ويفتون من عنده أمانةٌ لنا أو مال يتيم أنه يجوز له أكل أمانتنا ولو كانت مال يتيم، بضاعةً عنده أو وديعة.

بل يرسلون الرسائل لدهام بن دواس وهو أمير الرياض ذاك الوقت وأمثاله؛ إذا حاربوا التوحيد ونصروا عبادة الأصنام يقولون: أنت قمت مقام الأنبياء.

والشيخ حسين بن غنام تلميذ الشيخ محمد لما فصّل ما انتشر في الناس وقت ابن عبد الوهاب من الغلو أوضح أن شيخه ابن عبد الوهاب لم يسرع له لسانٌ بتكفيرهم بل توقف؛ تورعًا عن الإقدام على ذلك حتى نهضوا إليه وباحوا وصاحوا بتكفيره وجماعته، ولم يأمر بسفك دم ولا قتالٍ على أكثر أهل الأهواء حتى بدأوه بالحكم عليه وأصحابه بالقتل والتكفير.

وقالوا: إن كان الذي نفعل من الدعوات والاعتقادات بأهل القبور فنحن كفار وضُلال.

قال: وكان -يعني الشيخ- مع ما يسمع من الأذى وشحذهم لدمه مواضي جلادهم ومبالغتهم في السعاية لإهلاكه يتضرع إلى مولاه أن يشرح صدورهم للحق وكان يسير معهم بسيرة الصفح والعفو وأحب ما لديه إتيان أحدهم بالمعذرة، وحين أعز الله جماعته وأعوانه وجاءوا وافدين -يعني خصومه-، وجاءوا وافدين عليه لم يعاملهم بالإذلال والإهانة، وأبدى لهم البشاشة وكأنه لم يصدر منهم بلى.

ورصد البدايات الأولى للحرب الشيخ العلامة عبد الرحمن بن حسن وهو أحد تلاميذ الشيخ؛ لأنه تتلمذ على الشيخ -رحمه الله-. فذكر أن الشيخ ابن عبد الوهاب لما وصل إلى الدرعية وتلقاه أميرها بالقبول تابعهم أكثر أهل البلد على قلةٍ منهم وضعف، فأول من عاداهم أقرب الناس إليهم بلدًا وأقواه كثرةً ومالًا بلاد دهام بن دواس أمير الرياض.

فهو أول من شن الغارة عليهم على غفلةٍ وغرة فقتل منهم رجال، واستمرت الحرب بينهم بعد ذلك، وأعان دهامًا على حربه مرارًا أهل نجران وحاكم الأحساء يعني ابن عريعر.

ثم سرد الشيخ عبد الرحمن غزو معظم البلدان النجدية للشيخ في الدرعية وبدأهم وأنهم اجتمعوا للحرب ونزلوا على الدرعية وهي شعاب -كما ترى-، شعاب لا يمكن تحصينها واجتمع من أهل هذه البلدان عدّدها الشيخ بلدًا بلدًا، البلدان النجدية تقريبًا كلها اتفقت على غزو الشيخ في الدرعية.

واجتمع من أهل هذه البلدان حتى من يدعي أنه من العلماء يعني من خصوم الشيخ. ولما قيل لرجلٍ من أمثل علمائهم: كيف أشكل عليكم عريعر -يعني حاكم الأحساء- وفساده وظلمه وأنتم تقاتلون معه وتعينونه؟ فقال: لو أن الذي حاربكم إبليس لكنا معه.

وذكر الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن أن من وقف على سيرة الشيخ محمد بن عبد الوهاب وما ذكره المؤرخون من بدء دعوته عرف أنه لم يبدأ أحدًا بالقتال. بل أعداؤه ابتدأوه بذلك وقتاله كان من باب الدفع والمجازاة على السيئة بمثلها.

ومما يرتبط ببدء خصوم الشيخ إياه بالقتال ما وقع منهم من نقضٍ بشعٍ للعهود التي أبرموها، وهذا النقض للعهود يعد نوعًا من بدء الحرب بعدما وضعت أوزارها. وقد نقض العهد المبرم مع الشيخ أكثر من طرفٍ من خصومه في البلدان، حيث

كاتبوه الدرعية طالبين المهادنة وإرسال علماء من عند ابن عبد الوهاب ليعلموهم التوحيد، فاستجابت الدرعية للهدنة وتمت المعاهدة.

ثم أرسل الشيخ محمد بن عبد الوهاب عددًا من العلماء عنده إلى تلك البلدان بناءً على طلبهم؛ ليعلموهم التوحيد. لكن الذي حدث أن تلك البلدان اتفقت على نقض جماعي للمعاهدة، وكان ممن طلب المعاهدة أقوى أعداء الشيخ في نجد وهو دهام بن دواس أمير الرياض، طلب ذلك عام ألفٍ ومائةٍ وسبعةٍ وستين ثم لم يلبث أن نقضها.

وأقسى صور نقض العهد ما وقع عام ألفٍ ومائةٍ وستة تسعين ، حين اتفق عددٌ من رؤساء البلدان على نقض العهد مع الدرعية دفعةً واحدة، ثم عمدوا إلى العلماء الذين أرسلهم الشيخ لهم فقتلوهم قتلًا جماعيًّا كما قتلوا أيضًا من نفس جماعتهم، من نفس قرابتهم من آل تلك البلدان علماء لأنهم يدعون إلى التوحيد على منهج الشيخ.

وهنا هذه الحادثة من أشد حوادث ذلك العام إجرامًا وفظاعة.

ولذا تجد في كلام الشيخ محمد غضبًا على من خانوا هذه الخيانة وشدةً في كلامه عليهم. فيأتي بعض من لا يتقي الله اليوم ويأخذ كلام الشيخ في تلك الحادثة ويقطع

كلام الشيخ عن سياقه الذي قاله فيه. فإن الشيخ قال هذا في أولئك الذين غدروا وقتلوا أولئك العلماء الذين أرسلهم إليهم بناءً على طلبهم.

حتى من عجيب ما ذكروا أن أحد المكفوفين كان أعمى وكان من أهل العلم - كانوا يتفننون حتى في قتلهم- علقوه برجله وفيه رمق بعدما يعني فعلوا به ما فعلوا من الضرب والتنكيل ومات وهو معلق هكذا كأنه يعني منكوس الرأس.

كل هذا بعد أن طلبوا من الشيخ المعاهدة وبعد أن طلبوا من الشيخ أن يعلمهم التوحيد ثم نقضوا، فإذا غضب الشيخ وقال كلامًا بتر الذين لا يتقون الله -عز وجل- كلامه عن هذه الواقعة.

وإلّا هذه الواقعة تعلم أن أي أحدٍ يغضب غضبًا شديدًا إذا قتل العلماء الذين أرسلهم ونُقض العهد بهذه الطريقة التي هي نوعٌ من الاتفاق والتواطؤ والمخادعة؛ لإيصال أقصى ما يمكن أن يوصل من الضرر بالشيخ وأصحابه.

فهذا الكلام لا يزال في عرض بدء القتال من قبل الشيخ وأصحابه.

وننظر الآن في كلام خصوم الشيخ. من أشهر خصوم الشيخ: الشيخ أحمد بن زيني دحلان المكي، وهذا الرجل كان من أكثر من كذب على دعوة الشيخ وشوهها والله

تعالى سيجمع العباد ليومٍ لا ريب فيه. فكلام المعاصرين للشيخ والآتين بعده فيه الإقرار بأن خصوم الشيخ هم الذين بدأوه بالقتال وأنه لم يبدأهم.

من ذلك ما ساقه أحمد بن زيني دحلان، أورد الحادثة، الحادثة التي فيها ذهاب عددٍ من العلماء من أصحاب الشيخ لمكة؛ لمناقشة علمائها، النتيجة ما هي؟ أن تم القبض عليهم ثم حُبسوا في السجن مع أنهم جاؤوا لمناقشةٍ علمية مع العلماء هناك. أقر ابن دحلان أن الشيخ محمد بن عبد الوهاب وأصحابه مُنعوا من الحج سنواتٍ متتالية من قبل حكام مكة؛ لأنهم بزعمهم مجرد كفارٍ مرتدين،

و بناءً على ذلك بدأهم شريف مكة بالغزو في عقر دارهم في نجد مرات متتالية منذ عام ألف ومئتين وخمسة إلى عام ألف ومئتين وعشرين. وقد نقد العلامة الشوكاني -رحمه الله تعالى- هذا الفعل من شريف مكة، وهذا التشاغل بالشيخ وأصحابه على النحو الجائر الذي ذكرت.

وقد شجع كثيرٌ من خصوم الشيخ الحكام على غزو الشيخ وأصحابه، فغزاهم حاكم العراق أيضًا وفشل في مسعاه، ثم غزاهم محمد علي باشا حاكم مصر ومن بعده ابنه إبراهيم إلى أن سقطت الدرعية وحصل من التنكيل بأهل الجزيرة عمومًا ما يطول وصفه ، والعجب كل العجب الذي يخفى على كثيرين أن هذا التنكيل لم

يخص أصحاب الشيخ وحدهم بل عمّهم وعمّ خصومهم، حتى حصل دمارٌ هائل في جميع بلدان الجزيرة.

وكان أول من اكتوى بنار هذا الجيش خصوم الشيخ الذين استدعوا هذا الجيش فنكّل بهم هذا الجيش غاية التنكيل. فسبحان الله ما أعجب البغي كيف يُهلك أهله. وبدءُ خصوم الشيخ إياه بالقتال كان مبررًا عندهم؛ لأنهم يرون أن الشيخ مرتد وأن أصحابه مرتدين.

كما نجد ذلك في كلام عددٍ من خصوم الشيخ؛ ومن أشهرهم خصمه محمد بن فيروز الذي زعم أن الشيخ محمدًا وأصحابه مرتدون تحل دمائهم، وظل يحرض العثمانيين وحاكم العراق على غزوهم مرةً بعد مرة.

وكان ممن حرض على إبادة أصحاب الشيخ خصمه عثمان بن سند الذي شجع إبراهيم في كتاب، إبراهيم باشا في كتابٍ بعثه إليه لما اتجه إلى الدرعية شجعهعلى قتلٍ جماعيٍ حتى للأطفال وأنشأ قصيدةً يقول فيها:

ولا تُبـــــق منـهـم واحـــدًا تستطيبــــه	**إذا خَبُـــث الآبـــاء لم يَطِــب الــولـــد**

يعني اقتل الأولاد والآباء جميعًا.

وقد كاتب الشيخ محمد بن عبد الوهاب عددٌ من خصومه وأوصلوا إليه كتبًا يصرحون فيها بأنهم يستحلونهم دمه ودم أصحابه ويرون أنهم كفار.

والذين كاتبوا الشيخ بهذا عدد منهم ابن فيروز كما قلنا ومنهم ابن عفالق ومنهم ابن عبد اللطيف وغيرهم.

وقد أورد الشيخ -رحمه الله- كتاباتهم هذه متعجبًا من جراءتهم وبغيهم.

فكان موقف خصوم الشيخ من بدئه بالحرب مبنيًّا على زعمهم بأن الشيخ ومن معه كفارٌ مرتدون.

فلذا أوقدوا الحرب المرة تلو المرة وقد تقدّم أن الشيخ وأصحابه لم يبدأوا خصومهم بالقتال، بل هم الذين غُزُوا في بلدهم مما جعلهم يردون على من غزاهم بغزوٍ مثله مستدلين بقول الله: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾[الشورى:٤٠]، إلى أن مكّنهم الله تعالى من الانتصار على خصومهم وإخضاع هذه الجزيرة لحكم الشرع.

ثم لما أتى خصوم الشيخ إليه -فمثل ما سمعت في كلام ابن غنام- لم يعاملهم بالإهانة وكأنه لم يقع منهم أي بلى -كما عبر ابن غنام رحمه الله-.

هذا بإيجاز ما يتعلق بالجهات الأولى المرتبطة بتحديد من بدأ القتال؟ أهو الشيخ أم خصومه؟

الجهة الثانية: وهي تحديد السبب الذي هيّج على القتال.

فالحق أن السبب الذي هيّج على القتال هو غضب خصوم الشيخ من تطبيقه العملي لِمِا أوجب الله من إزالة مظاهر الشرك كبناء القباب على القبور وقطع الأشجار التي كان يغلو فيها الجُهال.

فهدم القُبة المبنية على قبر نسبة الغلاة لزيد بن الخطاب كذبًا وزورًا، هدم هذه القبة لما وقع تم تهديد حاكم العيينة -كما قلنا ابن معمر- من قبل ابن عريعر، فخرج الشيخ محمد من العيينة بطلبٍ من حاكمها ابن معمر، وقال: إني لا أطيق أن أخالف ابن عريعر.

و لما وفد الشيخ محمد بن عبد الوهاب على الدرعية اختلف الوضع؛ فإن ابن عبد الوهاب لما أخذ في إزالة الأماكن التي يُغلى فيها في الدرعية ، أعانه حاكم الدرعية الإمام محمد بن سعود -رحمه الله- ونصره مما أغضب خصوم الشيخ وجعلهم يقومون بغزوٍ عام للدرعية اشتركت فيه عدة بلدان كما ذكرنا ذلك قريبًا.

وهذا هو السبب الذي هيّج القتال.

والعجيب أن إزالة هذه المظاهر الشركية أين كان؟ لم يكن في بلدان خصوم الشيخ حتى يقولوا إنه أتى ودمر هذه المواضع في بلداننا، بل كان في الدرعية -موضع ولاية محمد بن سعود-.

ومع ذلك غضب الغلاة وغزوا هذا البلد؛ مما يدل على شدة تعصبهم لهذه المظاهر الشركية.

وقد نص على أن هذا هو السبب الشيخ محمد بن عبد الوهاب. فقال في رسالته لأهل المغرب بعد أن ذكر ما وقع من إحداث الناس أمورًا خالفوا بها ما كان عليه النبي -صلى الله عليه وسلم- وسلف الأمة من سؤال الموتى وبناء القباب على القبور وأن العلماء أوجبوا هدمها، قال الشيخ:

«فهذا هو الأمر الذي أوجب الاختلاف بيننا وبين الناس حتى آل الأمر بهم إلى أن كفرونا وقاتلونا واستحلوا دمائنا». أي أن هذا هو السبب الذي جعلهم يغزون الشيخ وأصحابه في الدرعية.

ولما كانت إزالة المواضع الشركية قد وقعت في الدرعية محل ولاية ابن سعود ذلك الوقت، فقد قال الشيخ في رسالته لعلماء مكة:

«جرى علينا من الفتنة مما بلغكم وبلغ غيركم وسببه هدم بناءٍ في أرضنا على قبور الصالحين، فأشاعوا عنّا أنّا نسُب الصالحين، وأنّا على غير جادة العلماء، ورفعوا الأمر للمشرق والمغرب». ثم قال الشيخ: «ثم اعلموا وفقكم الله إن كانت المسألة محل إجماع -يعني مسألة هدم القباب التي على القبور-، إن كانت محل إجماع فلا نزاع» يعني، يعني يقصد لأني طبقت أمرًا مجمعًا عليه وإن كانت مسألةً اجتهادية. فمعلومكم أنه لا إنكار فيمن يسلك الاجتهاد، فمن عمل بمذهبه في محل ولايته - يعني مثل ابن سعود لمّا هدم القباب في الدرعية،- فمن عمل بمذهبه في محل ولايته لا يُنكر عليه.

فمراد الشيخ أن هدم تلك القباب لو فُرض أنه محل اجتهاد فمسائل الاجتهاد إذا حسمها الحاكم باختيار قولٍ فيها فلا يُنكر عليه؛ لأنه طبق ذلك في محل ولايته. وبالتالي فلا وجه لغزو، لغزو خصوم الشيخ له في الدرعية مع أن علماء الحنابلة نصوا على وجوب هدم تلك الأبنية المقامة على القبور.

وخصوم الشيخ الذين غزوه يعلمون أن ذلك منصوص كتب المذهب الحنبلي.

ونصّ الإمام عبد العزيز بن محمد بن سعود حاكم الدرعية أن هذا هو سبب بدء خصوم الشيخ لهم بالحرب؛ حيث ذكر في رسالته لأهل المخلاف السليماني: أن الحال في نجد هو الحال الذي عليه غالب الناس من الشرك بالله من عبادة أهل القبور والاستغاثة بهم والتقرب إليهم بالذبح. قال: حتى أظهر الله الحق على يدي الشيخ محمد بن عبد الوهاب. فبيّن لنا أن هذا هو الشرك الأكبر، فحين كشف لنا الأمر بالنصوص وكلام الأئمة الأعلام عرفنا أن ما كنا ندين به أولًا هو الشرك الأكبر. ثم قال الإمام عبد العزيز: فلما نهانا عن ذلك تبرأنا من أهله، فلما فعلنا ذلك وأزلنا جميع الأوثان والقباب التي في بلداننا أنكر الناس ذلك وكفرونا ورمونا بعداوتهم عن قوس واحدة.

فنصّ رحمه الله على أن سبب عداوة خصومهم لهم هو إزالتهم المظاهر الشركية الموجودة داخل الدرعية في ولاية ابن سعود وأن غزو الشيخ في الدرعية إنما كان لهذا السبب.

فعرفنا من كل ما تقدم في هذه الفقرة أن الذين بدأوا بالقتال هم خصوم الشيخ. وعرفنا أن السبب هو غضبهم من إزالة مواضع الشرك مع أنها في غير بلدانهم بل

في بلدٍ أزال حاكمها هذه المظاهر الشركية؛ مما يوضح ما كان عند خصوم الشيخ من الغلو والتعدي على من أقام التوحيد وعمل بما أوجب الله من إزالة تلك الشركيات.

وبذلك اتضح أن الواقع التاريخي والعقدي دالان على حقيقة ما وقع في مسألتي القتال والتكفير، وأنهما ارتبطا عند خصوم الشيخ بعقيدتهم الفاسدة في معنى التوحيد، تلك العقيدة التي خالفوا بها ما قررته النصوص وعلماء السلف وعلماء الأمة من بعدهم في المعنى الصحيح للتوحيد.

فلا غرابة أن يبني هؤلاء الخصوم بعد ذلك اعتقادهم الفاسدة في التكفير وقتال الشيخ وأصحابه على ذلك الأصل الفاسد الذي نابذوا به علماء الأمة وما أجمعوا عليه.

وقبل ختم ما يتعلق بالقتال الواقع في الجزيرة في تلك الحقبة أنبه على أمرٍ فيه أبلغ العبر للمعتبرين؛ فإن خصوم الشيخ محمدٍ عدُّوا ما وقع من التدمير الهمجي للجزيرة على يد جيش إبراهيم باشا، عدُّوه تدميرًا للخوارج الذين خرجوا على العثمانيين وأثنوا على ذلك الجيش الهمجي الذي كان يتلذذ بتقطيع آذان الناس وأنوفهم في الجزيرة العربية وينوعوا في أساليب قتلهم، ومضى ذلك الجيش

بأسلوب الغدر في العهود التي أبرمها فما يلبث أن ينقضها، هذا الجيش أيها الإخوة -الذي سماه خصوم الشيخ بالجيش الذي أباد الخوارج- اتجه هذا الجيش بعد ذلك إلى عقر دار العثمانية الذين أرسلوه وتسلط عليهم هم - وهذا يجهله كثيرٌ من طلاب العلم، - فاستولى هذا الجيش -جيش إبراهيم باشا الذي خرج من الدرعية مدمرًا لها، عاد على العثمانيين-، فاستولى على عددٍ من بلدان الشام، وغضب السلطان العثماني وجهّز الجيوش لحربه لكن إبراهيم باشا هزم الجيوش العثمانية واحدًا بعد الآخر، فجهز العثمانيون لحربه جيوشًا كبرى بلغت الستين ألفًا فاستطاع أيضًا أن يهزمها.

ثم إن إبراهيم باشا في هذه المعارك المتلاحقة قبض على عددٍ من قادة الجيش الكبار وقتل عددًا من أولئك القادة ثم احتل بلدة أبنة التركية، وقتل وأسر عددًا كثيرًا من قادة الجيش ومن أفراده بلغوا الألوف، ثم إنه غنم غنائم كثيرة ثم وصل زحفه داخل البلاد التركية واحتل مدينة مغنيسيا وأرسل إلى أزمير رسولًا ولم يلقى بها مقاومةً أصلًا فعزل حاكمها، ، أقامه هو بدلًا منه ثم سار إبراهيم باشا حتى دخل بلدة كوتاهيه، وهدّد إن لم ينفذ العثمانيون مطالبه أن يزحف عليهم في نفس عاصمتهم ويزيل الدولة العثمانية بأسرها؛ مما جعل السلطان العثماني يستنجد بألد

أعدائه في ذلك الوقت وهم الروس، فأرسلوا خمسة عشر ألف جندي لحماية العاصمة، وهنا تمكن الروس من إبرام معاهدةٍ مع العثمانيين مكّنتهم من التدخل في شؤون العثمانيين الداخلية تحت وطأة الضعف الذي انتابهم من غزو جيش إبراهيم باشا؛

فهذا الجيش الذي سماه خصوم الشيخ قامع الخوارج أبى الله من فوق سبع سماوات إلا أن يسلط هذا الجيش على من أرسلوه وأن يشرق خصوم ابن عبد الوهاب بثنائهم على ذلك الجيش، حيث خرج هذا الجيش خروجًا صريحًا على العثمانيين. أما ابن عبد الوهاب الذي لم يكن أصلًا تحت سلطان العثمانيين كما قلنا فعدوه هو الخارجي، فكم لله من عبرٍ في هذا التاريخ لمن أراد الاعتبار!

الفقرة الرابعة في تراجع عددٍ كثيرٍ من خصوم الشيخ عن معاداته.

تراجع عددٌ كثيرٌ من خصوم الشيخ عن معاداته؛ فإن الدعاية التي كانت ضد الشيخ شديدةٌ جدًّا في ذلك الوقت اشترك فيها جهاتٌ متعددة مما نشر للشيخ عداوةً نشأت من عدم وقوف هؤلاء على كتبه.

فلما وقفوا على ما قرره الشيخ في كتبه وإذا به يقرر ما قرره علماء المذاهب الأربعة وينقل ذلك من كتب العلماء التي يعرفونها مما تسبب في رجعةٍ كبيرةٍ في الدعاية ضد الشيخ.

إذ وقف من أنصبوا على كتبه، عليها وتبين لهم أن الأمر فيها كان على خلاف ما بلغهم فتراجعوا عن خصمتهم للشيخ.

والأمثلة الدالة على هذا التراجع كثيرة جدًّا استقصيتها في بحثٍ عسى الله أن يُسهِّل خروجه.

أعرض لبعض النماذج، لبعض النماذج الموضحة لذلك؛

من ذلك ما وقع من تراجع علماء مكة عن خصمتهم للشيخ وكانوا يكفرونه أول الأمر بعد أن ناقشهم الشيخ عبد العزيز الحصين، حيث أقروا أن ما دعا إليه ابن عبد الوهاب هو عين ما دعا إليه العلماء قبله.

وهكذا أقروا بذلك عندما ناقشهم الشيخ حمد بن معمر والشيخان هذان من تلاميذ الشيخ محمد.

وقد شهد شيخ المذهب الحنفي بمصر -الشيخ عبد الرحمن الجبرتي رحمة الله تعالى عليه- والشيخ محمد بن علي الشوكاني عالم اليمن بأن تلك المناقشة من قبل علماء الشيخ قد أظهرت ما لدى أصحاب الشيخ من الحجة وأن العلماء المكيين أقروا بصحة ما ذكره أصحاب الشيخ.

ومثل ذلك المناقشة التي جرت بين الإمام سعود بن عبد العزيز وعلماء المغرب الذين وفدوا إلى الحجاز، فناقشهم سعود وأوضح لهم حقيقة دعوة الشيخ، فلما وقفوا على حقيقة دعوة الشيخ أقروا أنها الحق مما جعل سلطان المغرب -السلطان سليمان- يكتب للإمام سعود قصيدةً من نحو مئتي بيت يُثني فيها على ما قرره الشيخ محمد من الاعتقاد، ويُثني على ما صنعه الإمام سعود من إزالة مواضع الشرك والقدر التي كانت موجودةً في مكة، ويثني على ما فعله من تأمين الطرق للحجاج.

ومن ذلك ما جرى لعلّامة اليمن الشيخ عِلِي باصبرين -رحمة الله تعالى عليه-، فإن هذا الرجل كان من أكابر علماء اليمن، ومرةً نال من دعوة الشيخ محمد في درسه نيلًا فاحشًا، وكان الشيخان صالح البسام ومبارك مساعد حاضرين فلما فرغ الشيخ عِلِي من درسه قاما إليه وقالا له: يا شيخ هل اطلعت على كتب الشيخ محمد

حينما نلت من دعوته؟ قال: لا، لكني قلت هذا نقلٌ عن مشايخي، فاقترحا عليه أن يطلع على نسخٍ معهما من كتب الشيخ فوافق. فدرسها وتأملها وبعد أسبوعٍ جاء وقال لطلابه: إني نلت من الشيخ محمد ودعوته، والحق أن كلامي لم يكن عن اطلاعٍ على كتبه وإنما هو تقليدٌ وحسن ظنٍ بمشايخنا، وقد أطلعني بعض إخواننا النجديين على بعض كتبه فرأيت فيها الحق والصواب وأنا أستغفر الله مما قلت.
ونظير هذا الموقف ما جرى للشيخ رشيد رضا الشهير بعد أن اطلع على كتب الشيخ فإنه تراجع عن معاداته للشيخ وأصحابه؛ حيث كان يظنهم خوارج حصدهم جيش إبراهيم باشا.

وقد أطلع الشيخُ رشيد شيخَ الأزهر في وقته أبا الفضل الجيزاوي وعددًا من علماء الأزهر على كتب الشيخ فشهدوا أن ما قرره الشيخ محمد هو الحق، وقال له الشيخ، وقال شيخ الأزهر لرشيد رضا على ملأٍ من الناس: جزاك الله خيرًا بما كشفت عنّا من الغمة في شأن الوهابية.

والمتراجعون عن عداوة الشيخ كثيرون جدًّا يطول بنا المقام لو أردنا أن نتتبعهم، ولكن لعلنا نذكر شيئًا بحسب المتبقي من الوقت.

الأمر في موقف العلماء لاحقًا من الشيخ -رحمه الله تعالى- كما قال علّامة اليمن الشيخ الحازمي، وكما قال العلّامة الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن من أن كتب الشيخ صارت بعد أن اطلع عليها العلماء في الشام والعراق ومصر واليمن صارت تباع بأغلى الأثمان وتنافس العلماء في اقتنائها وذلك بعد أن تبينت لهم الحقيقة المتعلقة بصحة اعتقاد الشيخ ولزومه ما كان عليه علماء الأمة المحققون.

وقد أحصيتُ في زمن الشيخ وما قاربه مَن زادوا على مائةٍ وستين من علماء مصر والشام واليمن والهند والجزيرة العربية والعراق ممن كانوا على اعتقاد الشيخ، وأثنى عليه عددٌ منهم وسموه شيخ الإسلام.

ومن أهم من تراجع عن موقفه من دعوة الشيخ أخوه الشيخ سليمان بن عبد الوهاب الذي يحاول بعض خصوم الشيخ أن يقول إن سليمان بن عبد الوهاب نابذ الشيخ واستمر حتى مات. وهذا غير صحيح؛

فإن الشيخ سليمان -رحمه الله تعالى- تراجع عن خصمته لدعوة الشيخ كما وثّق ذلك الشيخ حسين بن غنام، حيث ذكر أن الشيخ سليمان وَفَد قبل وفات الشيخ، قبل وفاته بسنتين إلى الدرعية وتراجع عن موقفه.

ونقل أيضًا الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن رسالةً طويلة وقف عليها بخط الشيخ سليمان كتب رسالةً لثلاثةٍ ممن زاملوه في معاداة دعوة الشيخ محمد؛ وهما الشيخان ابن أشبانه والشيخ التويجري؛ وفي هذه الرسالة طلب الشيخ سليمان بن عبد الوهاب من هؤلاء المشايخ الثلاثة أن يبينوا الحق الذي ضل هو وهؤلاء الشيوخ يعادونه سنوات عديدة وأن ينشطوا في بيانه أكثر من نشاطهم السابق في طمسه ومحاربته، وقد أجابوه برسالة وعدوه فيها بذلك واستغفروا الله عما وقع لهم من نصر الشرك وأهله عدة سنين.

وقال الشيخ سليمان في بيان ندمه على ما وقع: والله لو خرجنا إلى البرية وجأرنا إلى الله تعالى توبة مما وقع منّا وعدّنا الناس مجانين لَمَا كان ذلك كثيرًا. يعني لندمه على ما وقع منه في معاداة دعوة الشيخ.

وقد صنَّف الشيخ سليمان بن عبد الوهاب رسالة مهمة في الرد على أحد خصوم الشيخ وهو مربت سماها الشيخ سليمان "الحق المبين"؛ وهذه الرسالة ذكرها الشيخ عبد الله آل محمود في كتابه "تحذير أهل الإيمان في رده على ابن فيروز". فلا ريب أن الشيخ سليمان قد تراجع.

هذه الشواهد الثلاث لا تبقي شكًا في أنه تراجع -رحمه الله تعالى- عن باطله السابق، وثمة مجموعة من أهل العلم كالشيخ عبد القادر التلمساني والشيخ أبي بكر الخوقير، الخوقير -رحمهم الله تعالى- وغيرهما من أهل العلم الذين راجعوا عن معاداتهم لدعوة الشيخ بعد أن وقفوا عليها.

أختم كلمتي بالقول: إن العجب والله كل العجب من أناس اليوم من أبناء هذه البلاد يقدحون في دعوة الشيخ وقد نفعهم الله بدعوة الشيخ فنشأوا في مجتمع لا يعرف الشرك، بل أُسس على التوحيد وهم يرون بأعينهم مجتمعات ينشأ أهلها، أهلها إلى اليوم نشأة مغايرة تقوم على الغلو في الصالحين وصرف العبادة لهم، ومع هذا الإحسان الكبير الذي بفضل الله ثم دعوة الشيخ لم يعتبر أبناؤنا هؤلاء لهذه النعمة التي هم فيها.

فإنهم بمجرد أن نعق خصوم للشيخ الآن هم امتداد لأولئك الغلاة الذين ينصرون الشرك أو ممن يقررون عين ما يقرره الغلاة من المرجئة بمجرد أن نعقوا ضل من ضل من أبناء هذه البلاد، وصاروا يقولون: للشيخ موقف من التكفير، للشيخ موقف من القتال يخالف الحق، متأثرين بالدعاية التي يبثها نصرة الشرك اليوم، مع أن الحقيقة في التكفير وفي القتال وفي أصل الخلاف الذي بين الشيخ وبين

خصومهم هي هذه التي ذكرت بحمد الله مبنيةً على حقائق عقدية مؤسسة على صريح مذهب أهل السنة وعلى إثبات من وقائع تاريخية معلومة.

فجهل هؤلاء بهذه الحقائق الشرعية ولهذه الحقائق التاريخية جعلهم يميلون مع أولئك الغلاة ضد الشيخ وهم يشعرون أو لا يشعرون، فهم كما قيل:

كالعيــس فــي الصحــراء والمـــاء فــوق ظهــورهـــا

يقتــلهــا الظمــأ مـــحمـــول

يعني كالإبل التي يقتلها الظمأ والماء في قربها محملة على ظهورها.

فالحق عندهم ويستطيعون أن يروه لكنهم لا يرونه، فهم كالإبل التي قتلها الظمأ في العيس. والحق منهم قريب لو أرادوه.

فنسأل الله أن يُجزل لهذا الإمام المثوبة وأن يجزيه عنّا خير الجزاء.

وإذا أردت أن تقف على حقيقة تأثير دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب فاقرأ التاريخ؛ اقرأ القرن العاشر، اقرأ القرن التاسع والعاشر والحادي عشر، هذه كلها قبل دعوة الشيخ.

فالشيخ -رحمه الله- في القرن الثاني عشر تقوَّت دعوته -رحمة الله تعالى- عليه.

اقرأ واقع نجد ولا تكترث بمجموعة من المؤرخين والمعاصرين الذين ليسوا من طلبة العلم، وأنكروا ما هو معلوم معروف في وقائع تاريخية مثبتة معلومة؛ وقد أثبت هذه الوقائع التاريخية أنصار الشيخ وخصوم الشيخ على حد سواء، جميعهم يثبتون أن الواقع لهذه البلاد هو وجود جملة من الشركيات الموجودة فيها شأنها شأن غيرها من البلدان، وليست نجدٌ بأعجب ولا أكثر علمًا من الشام ولا من العراق ولا مصر.

فالحاصل أن أثر دعوة الشيخ -رحمة الله تعالى عليه- كبير، نسأل الله أن يجزيه عنّا وعن المسلمين خير الجزاء وأن يُعلي درجته في المهديين، والله تعالى أعلم وصلى الله وسلم على نبينا محمد وآله وصحبه.